لولا الحكمة لما دامت القيادة:

رسالة مفتوحة الى الامين العام لحزب الله السيد حسن نصر الله

أحمد منصور *

سماحة القائد حسن نصر الله

ان التصحر العربي ـ الذي مر عليه أكثر من ثلث قرن بعد استشهاد خالد الأمة العربية وقائدها جمال عبد الناصر ـ جعل الناس تعيش بلا بوصلة رغم الكثيرين الذين حاولوا تقليده فانمسخوا دون أن يدروا وانمسحوا متحسرين من وجه البسيطة.

ان عبد الناصر كان في منتهى الجدارة كأستاذ في كلية الأركان الحربية وكقائد على مسرح العمليات في فلسطين. الا أن سطوعه كزعيم على مستوى مصر والعرب، ورغم عدم افتقاده البوصلة كان الحريق الجميل الذي التهم طاقته المتوقدة التي انطفأت في شبابه السياسي (اذ لم يتجاوز الثالثة والخمسين).

في شباط (فبراير) عام 1958 عيد الوحدة الأول بين سورية ومصر طارت الجماهير تلقائيا من داخل سورية وخارجها سائرة على أقدامها وسياراتها قبل ثلاثة أيام من هلول «المهدي المنتظر» مفترشة بآلافها المؤلفة أرصفة الفيحاء وساحاتها الحجرية وسواها من المدن. وحينما هبط عبد الناصر من الطائرة باتجاه المرسيدس رفعته الجماهير سفينة فضائية على الأكف والرؤى مما حدا بأحد مرافقيه ـ كما زعم ـ الى مخاطبته قائلا: «ولكن لا تنس أنك انسان».

في السنة الثانية انكفأت الأنهار البشرية التي تسيرها روحها واستبدلتها المخابرات بالطلاب الذين أقفلت مدارسهم وجامعاتهم والعمال الذين عطلت مصانعهم والفضوليون والانتهازيون من كل حدب وصوب. وشتان ما كان بين عام وعام.

هذه الجماهير التي رفعت عبد الناصر الى السحاب هي التي ـ فيما بعد ـ رمته الى التراب، لأن العلاقة بينها وبينه كانت هوائية... خذلها فخذلته وأسكرها فأسكرته وأعياها فأعيته.

وما كان أوكسجينه الأخير في مرضه وعجزه بل «أفيونه» (بناء على نصيحة مخابراته) الا في التوجه اليها والتماهي الصوري معها خلال ثلاث ساعات من فصل لآخر.

سماحة السيد:

كلما صعدت الى المنبر كلما تصاعد خوفي عليك. وكلما تألقت في الصعود، كلما ازداد خوفي عليك أكثر فأكثر، فأكبر مقتل للسياسي والكاتب والفنان هو ورود التكرار، ومن منا يستطيع تجديد الهامه وتنويعه الى ما لا نهاية أمام الجماهير التي لا ترحم، والتي قلما تسمع الا ما تريد.

قبل أن تبدأ خطابك الأخير بدأت الأرض تمطر رصاصا على السماء العاجزة عن ردها عشر دقائق على الأقل واستمر الوضع بعد انتهاء الخطاب بشكل أقوى وأطول رغم محاولتك الملحة اثناءهم عن ذلك ورغم تذكيرك لهم بأن المكان الوحيد للرصاص هو صدر أعداء لبنان: العدو الاسرائيلي، وان من يطلق الرصاص مدسوس يريد الاساءة اليك والى المعارضة الوطنية ولكن «دق المي مي». انه لشيء محزن ومؤلم أن لا تسمع كلمتك بعد ندائك الحضاري المؤثر.

مناسبة أخرى نذكرها جميعا اثر «بسمات وطن» المعروفة حيث انسد طريق المطار وسارت السيول البشرية نحو الأشرفية فطلعت عليهم بعبقريتك المعهودة مدويا: «أنا المسؤول ولكني لم أطلب منهم ذلك». فانوأدت الفتنة بقدرة قادر. كنت أتمنى استخدامك أسلوبا مشابها في «الرمل العالي» لقطع الطريق على الصيادين في المياه العكرة.

ومن منا ينسى أمك لمليون من البشر في ساحة رياض الصلح في اليوم الذي أطلقت عليه «يوم الشكر والوفاء» لتوديع الجيش السوري بعد ثلاثين عاما من حضوره في لبنان والذي لم يكن يرغب ببقائه الكثيرون. ان ذلك اليوم بالذات كان مفصلا تاريخيا في حياتك السياسية واستبعادا عبقريا لمصادمات وغارات محتملة على ذلك الجيش لتصفية حسابات الكثيرين من اللبنانيين مع النظام الذي أرسله. لقد ودعت جيشا منسحبا تحت تهديد القوة القاهرة.. فكأنه كان عائدا من انتصار كبير.. انه لعمري اعجاز الاعجاز...

ومن منا لا يذكر النصر والتحرير عام 2000 حيث كنت رجل الدولة الأول بامتياز. فما صفيت آلاف العملاء كما فعلت فرنسا الديغولية بعد تحريرها من ألمانيا عام 1945 وتركت الأمر للقانون كي يأخذ مجراه.

ان تاريخك كرسك في المقدمة دون أي منازع. فغدا خطابك موعدا مع أسماع وأنظار الآلاف بل مع مئات الآلاف على صعيد الوطن والجوار والأمة شئت أم لم تشأ وشئنا أم لم نشأ.. وما اعتلاؤك مناكب المصريين خارج الأزهر وداخله وعلى جدرانه سوى شاهد عيان واختراق لقائد لبناني عربي شيعي لم يسبقه ـ حسب علمي ـ أحد الى التبختر في شرايين قلب أم الدنيا.

سماحة الأمين العام:

«صديقك من صدقك» وهل يقوم الصدق على غير المصارحة والمكاشفة؟ اذن اسمح لنفسي بتذكيرك بأحد تصريحاتك بأنك لو كنت علمت بأن أسر الأسيرين الاسرائيليين كان سيستلزم قيام الحرب الأخيرة لما كنت أمرت بذلك. وأضفت بأن قيادتك العسكرية بأعضائها الخمسة عشر لم يتوقع منها أحد أو يفترض حصول ذلك.. علما أن أية قيادة عسكرية متزنة تضع نفسها مكان العدو قبل المعركة. ورغم أملها الواعد بالانتصار، فانها توفر انسحابا لجيشها في حالة الهزيمة استعدادا للثأر في معركة قادمة. بالطبع أنت المسؤول عن النتائج. لكن أليسوا مسؤولين عن توصيلك الى هذه النتائج؟ أقول ذلك لأن الأقدار شاءتك القائد الميداني في المواجهة أو الواجهة. فمصير البلد مرهون بقيادتك. وما مشاركة اللبنانيين عموما لك في الحرب الأخيرة (رغم تحفظ القياديين الذين لم تستشرهم) سوى اعتراف بارز بدورك وأهميته سيما أثناء تدمير البلد واشعاله.

السيد الأمين العام:

عندما تخطب في مئات الآلاف يتبادر لذهني وكأنك تتصور أنك أمام خلائق منسوخة من حسن نصر الله. وهنا اسمح لي بعدم موافقتك اذا ما تصورت أنهم سيكونون في غاية الانضباط والطاعة والعبادة كأسنان المشط لمجرد وجودهم أمامك، فهم أحب الناس وأنزههم وأشرفهم وأخيرهم وأطيبهم على الأرض. وهل نحن الآخرين غير الحاضرين من أقوام وأقاليم وأشكال والوان لا مكان لها في ساحة الطهارة والاستجابة؟

فهل من ارتكب أكبر الخطايا وأخطر الجرائم يغسله مجرد حضوره بين يديك فيغدو الأبرأ والأجمل والأنزه. ونحن الآخرين نحرم من كل هذا لسبب واحد لأننا غير ناظرين ومباركين...

ان النصر دون شك، كالكرم يغطي ألف تقصير وقصر نظر وحتى دماء المستشهدين بالمئات والآلاف، فكيف بالأمر عندما نغدق عليه صفة الألوهية أمام جماهير متعطشة لنفض غبار الذل والاستكانة اللذين أرادهما لها الاستعمار والاجتياحات المتعاقبة من جماعات مجاورة؟

السيد الأمين العام:

كسيد أنت فيه روح الامامة وبوصلة عصمتها وفقه المجاز السياسي حيث السلاح يغدو مرادفا للعرض والانتصار وعدا الهيا تحقيقه آت لا ريب فيه.. فماذا لو كانت «أحد» من نوع جديد (في ساحة الحرب كل شيء ممكن) فكيف يكون موقف وعدك الدائم بالانتصار اذا ما اعترضته الهزيمة؟ وكيف سيكون وقع ذلك على مشايعيك؟

سماحة السيد:

انك تجسد قيادة دينية زمنية متميزة تعيدنا الى مجرة السلف الصالح أيام العصر الراشدي وهذا مما يزيد في توجه العيون تجاهك أكثر فأكثر. اذ أن تكذيب قيادة الجيش لما قلته في اليوم التالي لخطابك وضعنا جميعا أمام حرج، أنت ومن حولك ونحن في غنى عنه. فاذا لم تكن أنت المسؤول فمن يكون المسؤول؟ ونحن لا نريد أن تكون المسؤول لاننا ضنينون بتميزك وتفردك في بلد ما عرف في السياسة سوى المناورة والكمائن واللعب بالمصائر بشكل عام. وكل من كان من غير هذه الطينة «كأنطون سعاده وكمال جنبلاط وفرج الله الحلو... فان التصفية كانت بانتظاره لاجتيازه الخط الأحمر».

ليتها ظروفك الأمنية ـ سماحة الأمين ـ تسمح لك بالدروشة على طريقة المسلمين الحاكمين الصالحين كي تمس بيدك وعينك الواقع الملموس كما مسسته عرضا «بالاثنين شاي» كما أوردتها في مداخلتك الأخيرة. انك تدرك ـ بطبيعة الحال ـ بأن الكثيرين من محازبيك ومحالفيك يشايعونك بألسنتهم. أما قلوبهم وسيوفهم فمن الصعب أن تعرف أين ستكون في الأيام الحاسمة لأن الكثيرين منهم أصحاب أدوار افتقدوها ويريدون العودة اليها، وأصحاب أدوار منشودة لا يخسرون شيئا في نشدانها، ولا ينقصهم الا الفرص والوسائل للوصول الميمون.

لقد كنت في منتهى السعادة عندما تمعنت في «حفلات الجنون» وتوصلت الى عين الصواب والعقل بقولك: «أن لا أحد يستطيع الغاء أحد في لبنان». اني ألفت انتباهك بأن «حفلات الجنون» ممكن أن تشهدها في كل مكان بلبنان، وانك في الموقع الأعلى لتتأكد بأن قوة السلاح الحقيقية تكمن في عدم استخدام السلاح، فبمجرد استخدامك له في الداخل اللبناني البيزنطي فانك ستصبح أسيره وستنقلب الأدوار وينطرب العدو. حتى ولو انتصرت على الجميع في مد خاطف فان انتصارك سيكون سبب هزيمتك على المدى الطويل. فأنت في أرض فيها الجاه والأنانية والنفاق هم سادة الساحة ولو تغيرت الألبسة وتبدلت الكلمات، فالايمان ما دخل الألباب كما دخل الجياب. ولا داعي للتذكير بمحترفي السياسة في لبنان الذين اعترف لهم الأقربون بشكل خاص. فالتحالفات تأخذ طابعا أحيانا سرياليا لا تصدقه العيون ولا العقول، فخصم اليوم حليف الغد وحليف الغد خصم الغد الذي يليه. فالثبات في لبنان للمصلحة فقط، وكل شيء برسم النقض والتحول، فالمبدأ يبدأ بالمصلحة وينتهي بالمصلحة والمصلحة فقط ولا دوام الا للمصلحة.

سيدي الأمين العام:

انني كمصنوع من لغة وكصانع فيها، أدرك معنى الكلمات وأبعادها، وأفهم أن مشيئة الأمة هي الأقوى وهي الأولى شاء أم لم يشأ اللبنانيون وهذا ما يراه الأعمى في علم حزبكم الرائع الذي يلفت الانتباه لمعالمه المركزة المعبرة التي تقول: «ألا ان حزب الله هم الغالبون» وفي سطر مواز في العمق نقرأ: «المقاومة الاسلامية في لبنان».

على الصعيد النظري المضمون ساطع كالشمس في عز الظهيرة. ولكن ينبغي طرح السؤال: هل يستطيع هذا البلد الصغير المفصل (بحد السيف وأنهار الدم) لثمانية عشر شعبا ومذهبا بمجاراتك دون توقف في هذه الملحمة غير العادية التي بدأت تجاور الربع قرن والتي حققت فيها انجازين عظيمين بل أسطوريين: انجاز التحرير وانجاز النصر الأخير.

لقد قررت أن أحضر الحرب الأخيرة وتنقلت من منطقة الى أخرى ولم أشهد مرة بنظافة مال في حياتي الا أثناء هذه الحرب عندما كنت أرى كيف كانت الجباه تسقطه في الأيدي عندما تفتح به الأبواب الموصدة (في بلد شعبه شعب الليرة حسب تعبير أحد المهاجرين الذي عاد ليموت في الوطن على فراش آلامه وحسراته) وذلك في الجبل بعز دين الاصطياف. فعرف الجبل صنفين متناوبين في صيف واحد صيف الخليجيين المبارحين وصيف المواطنين النازحين من تحت القصف الاسرائيلي. «فاكتشف» أهل جبل لبنان أهل جبل عامل واقتنعوا أنهم بشر مثلهم. وهذا مما كان من ايجابيات تلك الحرب على صعيد النسيج الوطني المفقود.

السيد القائد:

لقد انتزعت انتصارا لا مثيل له على صعيد الداخل فرغم عدم رضا الكثيرين من أخصامك على الحرب كأمر واقع، فانهم فتحوا أبواب مناطقهم لأنصارك (رغم الكثير من السلبيات التي حصلت)، انها المرة الأولى التي يجيد فيها زعيم مثلك تحييد منافسيه وخصومه تحييدا ايجابيا طيلة أيام الحرب التي لم تكن قصيرة.

سألت حفيدتي (وهي في الرابعة عشرة ابان مداخلتك أثناء الحرب) كيف ترين هذا الرجل؟

أجابت على الفور: انه كالمغناطيس يشرقني وينسيني العالم. أما أخي الأكبر مني سنا فتسمرت عيناه على شفتيك وأنت تقول: أنظروا في هذه اللحظة كيف تغرق بجنودها البارجة الاسرائيلية التي أصبناها... لكأنك عبد الناصر في لحظة تأميمه قناة السويس. لقد أعدته الى شبابه وكأنه أصبح في لمحة تحت تصرفك بكل ما يملك ولكن عندما انتهى الخطاب عادت المصالح الى أهلها فشعر وكأنك سبب تشتيت عائلته التي أمضى سنواته السبعين من أجل بنائها، فرمد مكانه أمام الآفاق الدخانية التي لفت البلد والبلاد وتشنطط أولاده في أكثر من قارة وبلد.

أما الطرفة الأخيرة فكنت في أحد المطاعم فسمح لي صاحبه بمواكبتك في احدى خطبك (رغم الحرج المحيط) وسألني الرجل عندما أنهيت خطابك: ما رأيك يا أستاذ؟ أجبت: «هيدا رجال بيفهم وعارف لوين رايح» قاطعني قائلا: «لأنو بيفهم راح يوجعلنا راسنا».

سماحة القائد:

عندما كنت تواجه وحدك العدو في الجنوب كان الجميع معك... أما عندما توجهت الى بيروت و«عسكرت» بـ 1020 خيمة في وعر ساحتيها فأصبح الكثيرون يخشونك بل تأهبوا لمواجهتك.. اني أخاف أن تكون قد انزلقت الى الوحل اللبناني بعد أن ضيقوا عليك الجنوب والشرق وأن يغدو ربع القرن الملحمي الذي كنت لواءه معرضا للانتحار وتحت رحمة أزيز رصاصة واحدة.

المعارضة، سيدي القائد، في عالم السياسة برنامج سياسي لا عورضة ولا اجتياحا عسكريا أو شعبيا لسراي. انك الوحيد في لبنان الذي يستطيع أن يقول: لا لأي رئيس في البلد الشقيق اذا ما انوجد عمران بلده في هذه اللا. وانك السيد الأوحد أمام السيد الامام الخامئني الذي يعرف كيف تمارس الشورى ويكون الحوار.

انك ـ يا سماحة الأمين العام ـ أكبر رأسمال وطني قيادي أنتجته ديمقرطية لبنان العرجاء وعلى هذا الرأسمال الفريد أن يجير نفسه بالدرجة الأولى الى وطنه الذي تتحفز لالتهامه أنياب الأعاصير المتربصة.

لقد حاصرت أحد المقربين منك سائلا أن يختصرك بكلمة: فأجاب: «التواضع». وأضفت هل هو تلقائي فأضاف: «انه متجسد في خطابه». وهذا ما ذكرني ـ يا سماحة السيد ـ بأستاذك وأستاذنا الكبير سماحة الامام موسى الصدر عندما سمعته في مداخلة عن لبنان بباريس عام 1975 بالبيت اللبناني أما المئات من الجامعيين وطلاب الدكتوراه. بعدما انتهت كلمته نطقت هيبته المشرقة على قامته الفارهة سائلة: هل من أسئلة يا شباب؟ وماذا تريدون من لبنان؟ الصمت المطلق ساد الساحة.. دقائق تخنق دقائق.. وقفت مفتتحا النقاش، فأجابني سماحته على ما سألت فلم أكن راضيا كل الرضا عن الاجابة فاستأنف معقبا: لا أستطيع أن أسر لك كل ما أفعل في العلن فقلت له بدوري: سماحة الامام: ان ذكاءك وفصاحتك قد ظلما الجميع والمطلوب هو التدارس لا ظلم الذكاء فردد مبتسما التدارس.. التدارس ..أجل التدارس.

سماحة القائد:

انك تعرف ايصال أفكارك للناس بأبسط ما أمكن من الكلمات الدافئة واطلالتك الدينية تسبغ عليها نوعا من المصداقية القدسية. فالسيد قال والسيد أشار، والسيد دائما على حق، وكلنا فداء السيد... ولكننا نحن زملاؤك في العربية مليحة اللغات وأم أجمل كتاب عرفته البشرية نفهم معنى الكلمات وأبعادها كما ندرك مرامي الجمل والقراءة بين السطور، فعندما تنادي ليل ـ نهار بحكومة وحدة وطنية في نقيضين لا يلتقيان الا على الخشب، وحدة (لأصدقاء سورية وايران) و(لأصدقاء أمريكا، فرنسا واسرائيل)، فبذلك يجتمع الصيف والشتاء على السطح الواحد وتتوحد الفصول أو على الأقل يمنع صيفها من سيطرة شتائها والعكس بالعكس.. كما أنك لا تتورع عن اتهام الحكومة الحاكمة باللاشرعية وبحكومة فيلتمان ورايس واسرائيل..

اذا كنت تبغي تجميد البلد وتجاهل تركيبته الاقتصادية كليا وتعطيله من خلال اسطوانة الثلث المعطل المطلوب في هذه الحكومة الهجينية المنشودة لتوقف الغرب عند حده على شاطئنا فيبدأ العد العكسي لتعرب أو تؤسلم المتوسط فذلك مسألة فيها نظر ولا تحسم لا في شهر ولا حتى في عقد أو قرن.. المسألة أعقد مما يتصوره جبابرة العباقرة وهذا كان حلم جيلنا ومقتله.. الحلم شيء وتحقيقه شيء آخر.. فتشييد عمارة يتوقف على تصخير أساسها وعلى مدى قدرتها على الحمل، انه كتشييد الأمم.

لقد حققت معجزتين في ألفين من الكيلومترات المربعة بست سنوات مؤيدا من ثلاثمائة ألف انسان نيابة عن ثلاثمائة مليون من البشر.. انه المجد في الواقع وبالنسبة لك. وانك غدوت «ناصر» آخر بلا مصر وبلا الدول العربية و«مانعتها من الجمع» فتعلقت صورك على الأحداق والأعتاب والآفاق.

سماحة الأمين العام في حزب الله:

في الماضي كنت أسير وراءك وجدانيا وفكريا دون أن أسأل الى أين؟ أما الآن فاني لن أخطو أية خطوة الا اذا أجبتني لماذا؟

لأني لم أعد أدري اذا كنت سأسير على الأرض أم على صراط من المهاوي...

السيد الأمين العام:

الناس ملت الحرب. الناس تعبت. الناس تردد: بدنا نعيش. البلد يتصحر من شبابه. الجميع أعطوك أكثر من طاقاتهم.. الفتنة لها الف رأس وقرن تطل بكل زاوية وشرفة. فكما أن الأسد لا يستطيع الاستواء على ظهر صرصار فان لبنان لا يستطيع ان يحمل على ظهره الأمة العربية الاسلامية التي تستلزم استواء العالم القديم. كما أن قانون البناء في أي بلد لا يسمح بأي تغيير في طبيعة البناء ان لم يوافق عليه جميع الملاك بدون استثناء.

لقد كان هاما سيدي الأمين العام ـ أن تقوم باعتصام عريض طويل ولكن الأهم أن تعرف كيف تنهي هذا الاعتصام.

سيدنا الأمين:

الأندلس ضاعت للأبد والقدس كادت.. والعراق في طريق الضياع.. ولبنان ليس بعيدا عن العراق الا اذا كان من السيد حسن نصر الله أمين عام حزب الله الترياق.

الكلام ناصع نصوع براءة الأطفال وثلج حرمون تحت أشعة شمس آب (اغسطس) والله شهيد،

* كاتب وشاعر من الجنوب اللبناني

العملية السياسية العراقية في الانعاش!

جمال محمد تقي*

■ التشخيص كان جليا جلطة مزدوجة قلبية ودماغية، واعراضها واضحة شلل رعاش، وصعوبة بالغة بالحركة او النطق، مما يعني انها قاب قوسين او ادنى من الموت، هذا التشخيص اقره شاهد من اهلها، عندها كذب الخبر أحد اكبر أولادها جلال الطالباني متهما الطبيب بيكر ولجنته الطبية بقلة الخبرة، بيكر رد على الطالباني قائلا: لا يريد الطالباني اقرار الحقيقة لانه لا يفكر بطريقة عراقية وانما بطريقة رئيس عشيرة كردية!

للحقيقة فقط ان السيد بيكر اكثر عراقية في تشخيصاته هذه من السيد جلال الطالباني رئيس جمهورية العراق!! هل هناك اكثر من هكذا مؤشر على ان العملية السياسية ماتت وشبعت موتا؟

الوصايا الكثيرة تكشف وبالتفصيل الممل معالم الفشل الذي رافق المجهودات الحربية والسياسية التي جرت في العراق منذ احتلاله حتى الآن، ففشل المجهود الحربي الامريكي هو فشل لما يسمى بالعملية السياسية والعكس صحيح، ومجريات الأوضاع في العراق قالت قولتها قبل تقرير بيكر لأكثر من ثلاث سنوات عجاف هي سنوات الاحتلال وما زالت تقول، وما جاء به بيكر لا يلغي الاحتلال وتداعياته الكارثية وانما، ينظم وجوده وانسحابه كمقدمة لدخول مرحلة التحريك عن بعد لتجنب الخسائر المباشرة!

لقد اقر بيكر في تقريره بان المعالجات العسكرية والسياسية الامريكية ومن يعمل تحتها من عراقيي الميليشيات الحاكمة قد اندحرت بامتياز، وعليه فما عرضه التقرير من نقاط دقيقة هي ليست جديدة انما الجديد في الأمر كله انها تجيء بمثابة اعتراف رسمي بالفشل!

لجنة بيكر جهة امريكية تمثل الحزبين الوحيدين المتواليين على الحكم، الحزب الجمهوري الحاكم والحزب الديمقراطي المعارض، وتوصياتها ستكون بحكم خارطة طريق لمعالجة المأزق الامريكي في العراق ان كان الحكم جمهوريا حاليا او ديمقراطيا لاحقا، وعليه فان التقرير يعالج النتائج دون الاسباب فالاسباب هي جمهورية وديمقراطية مشتركة حيث كانت اغلبية نواب الحزبين مع قرار شن الحرب على العراق، والتقرير يحاول تعديل مسار المشروع الامريكي بعد فشله دون التخلي عن جوهر الاسباب الكامنة وراء الحرب ذاتها!

ما يهمنا هنا هو قراءة تفاعلات هذا الاعتراف الامريكي ووصاياه شبه الملزمة على كمبارس العملية السياسية من العراقيين اصحاب الميليشيات المتوافقة مع المشروع الامريكي بنسخته الاولى، وعرضها الدقيق لحالة التسيب والفساد والتشظي التي تعيشها الساحة العراقية، اضافة الى اعلانها لحقيقة عقم ما يسمى بسياسة الفوضى الخلاقة دون ان يسميها ايضا، وعليه يمكن اعتبار التقرير تمهيدا تعبويا للتعديلات المرتقبة على السياسة الامريكية بشأن العراق، وهذا ما دفع اغلب اطراف العملية السياسية للحج الى واشنطن وتقديم ما يمكن تقديمه من عروض وخدمات كي تحمي نفسها من اي استبعاد او تهميش او تحول قد يجعلها في مهب الريح !

بوش وتجاربه المختبرية على «فئران العملية السياسية»:

سيجرب بوش بهم ما لم يجربه هتلر بحكومة فيشي، وسيستفيد من ملاحظات بلير ليجرب بهم ما لم يجربه ابو ناجي في نوري السعيد وسعد صالح جبر وبهجت العطية ومحمد العريبي، قد يجرب الانقلاب البرلماني او الانقلاب الحكومي او سحب الغطاء عن بعضهم لينكشفوا امام البعض الآخر فيطيح بهم دون ان تتلطخ اياديه بدمائهم، اذا اراد اقصاء المالكي فعليه فقط ان يؤشر الى خدمه في شمال العراق الطالباني والبارزاني باسناد من الحكيم، واذا اراد اقصاء الحكيم وجوقته فعليه اعلان الاحكام العرفية وتشكيل حكومة طوارئ كما اقترحها الطبيب الجراح غير المداوي اياد علاوي، واذا اراد رأس مقتدى الصدر فما عليه الا تسليم راس الرئيس صدام حسين!

من اجل الخلاص من المقاومة واصحابها فقط هو على استعداد لاطاحة بكل رؤوس خدمه في العراق وقبر عمليتهم وسكتهم السياسية، هو مستعد لتحويرها او تعديلها او اجتثاثها ليعيد تشكيلها مناصفة مع رموز المقاومة، طبعا اذا قبلت الاخيرة بالقاء سلاحها والتلاؤم مع مشروعه!

لقد جرى طرح طعم بهذا المعنى فيما يسمى بمؤتمر المصالحة الأخير، على شاكلة الغاء قانون اجتثاث البعث واستئصال بنود كاملة من الدستور وتعويض كل العسكريين المتضررين، واعادة قسم كبير من العسكريين والمدنيين البعثيين الى وظائفهم، والاستعداد الأولي لتحديد اجل مسمى لانسحاب القوات المحتلة، لكن الذي حدث وكما كان متوقعا رفض كامل للمشاركة فيه من قبل شرفاء العراق ومقاوميه وكان الحضور مقتصرا على جماعاتهم فقط، بل ان الكثير من عناصرهم قد تغيب وتسرب بسبب شعوره بقرب النهاية، وما حدث في المنطقة الخضراء بعد انقضاء اعمال المؤتمر الاضحوكة يؤشر على حقيقة ما ذهبنا اليه، واليكم الحكاية: دخلت مركز شرطة الكرادة الواقع في المنطقة الخضراء مفرزة مسلحة امريكية بلباس شركات الحماية الخاصة واطلقت سراح الوزير السابق ايهم السامرائي الموقوف بسبب تهم الفساد واصطحبته الى مطار بغداد حيث طار من هناك الى موطنه الاصلي!

الشرطة العراقية نقلت الواقعة الى وزير الداخلية ووزير الداخلية تنفس الصعداء لأن الامريكان قد حسموا الموقف الذي كان جر وعر بين لجنة النزاهة وقاضيها القاضي راضي وبين قاض امريكي اصدر حكمه ببراءته لأنه يحمل الجنسية الامريكية الأمر قد تم والسيادة الوطنية تخر على راس رئيس وزرائها خضير او نوري او جواد المالكي الذي لا يستبعد ان يكون هو نفسه من حملة الثلاث جنسيات!

الطريق الوحيد للحل:

الحل لمن يريد حلا: هو الغاء قرار حل الجيش العراقي واعادة تأهيله اعتمادا على التقاليد العريقة للعسكرية العراقية والغاء قرار اجتثاث البعث وتشكيل مجلس تأسيسي يجمع ممثلي كل الاحزاب والكتل السياسية بما فيها فصائل المقاومة وحزب البعث، وحل كل الميليشيات واعتماد دستور انتقالي يجسد انتماء العراق العربي الاسلامي بنفس ديمقراطي غير قابل للمساومة ويحافظ على لحمة العراق وثروات اجياله رافعا راية المواطنة وحسب، والتي لا تعلوها راية في اقرار مبدأ الحقوق والواجبات والتعددية التي تنشد تكافؤ الفرص والانتقال السلمي للسلطة عبر مؤسسات محمية من الدستور ومن المؤسسة العسكرية التي ستكون الحارسة الامينة دون ان تتدخل وبأي شكل من الاشكال بالحكم واشكالياته، وقبل كل هذا وذاك عقد عقد وطني يحمل الغزو الامريكي التداعيات الكارثية التي جرها على العراق بعد جريمة حربه غير المبررة عليه مطالبا اياه بشد رحاله وتنظيم انسحابه وعلى الفور وتسديد فواتير الجزء الاكبر من اعادة اعماره كتعويضات مستحقة، واقامة مؤتمر دولي تكفله الامم المتحدة ليكون راعيا لتنفيذ هذا العقد وخاصة في جزئية قوات الاحتلال وتنظيم انسحابها مع مبدأ التعويضات والمباشرة في تخصيصها للجنة الاعمار الوطنية التي تخضع لرقابة المجلس التأسيسي، تشكيل حكومة من المتخصصين المشهود لهم بالنزاهة والكفاءة، هذا هو طريق الحل الوحيد للمشكلة التي يمكن ان تستعصي اكثر على الحل وسيتضرر من مضاعفاتها الجميع وعلى رأسهم المحتلون واعوانهم، هذا هو الطريق الحقيقي للمصالحة الوطنية فهل سيسلكه من ينشدون المصالحة الوطنية حقا؟

ان عناصر ما يسمى بالعملية السياسية لا تملك مفاتيح الحل ولا يملكها الامريكان انفسهم، وكلهم يدرك ان المقاومة وحدها من تملك تلك المفاتيح، ومن يقول غير ذلك عليه البرهنة بأن الامريكان ومعاونيهم قد نجحوا في مشروعهم الذي ينحدر يوميا للمزيد من الهزائم والهوان.

كل مجالسهم من مجلس الحكم الى مجالس الوزراء الى مجالس مصالحاتهم الوهمية هي مجالس فاتحة وعزاء لا يحضرها سوى شحاتي ولصوص وسماسرة وطبالي العهد الامريكي في العراق.

كل لجانهم ومفوضياتهم ومحاكمهم التي أسسها الامريكان منذ احتلالهم للعراق هي اسماء فضفاضة لهياكل تمتهن الارتزاق والتكسب وليست لها اية مصداقية لا خلقية او اخلاقية من مفوضية الانتخابات الى مفوضية النزاهة الى المحكمة الخاصة الى لجنة الحوار والمصالحة الوطنية!

* كاتب من العراق

فلسطين على طريق الدماء من جديد

حمدان حمدان*

■ دماء شعب فلسطين غير مسقوفة ولا تقف عند خط، بل هي لا تقف عند زمان، وها هي اليوم، لا تقف عند مكان، من حيث هي تمتد من جنوب فلسطين الى وسط بغداد، فلا تجد من يسأل عنها، الا في استمطار الدعاء، والموعظة الحسنة، التي باتت لا تسمن ولا تغني من جوع.

اليوم، تنقلب المقاومة الفلسطينية، الى تجربة الانتحار الجماعي، او هي في ولوج مسادا كنعانية محدثة، تعفي اسرائيل من مغبة ابادات جديدة، طالما ان القوم يقومون بالمهمة المستبدلة بالبنادق المصوبة الى النحر الوطني، بديلا مخزيا عن شعار: كل البنادق نحو العدو الصهيوني!

لن نجرب الدخول الى دهاليز كافكا الفتحاوية والحماسية، والآيلة بدورها الى غاطس النفق المظلم، بين وثيقة اتفاق ووثيقة اسرى، ولا عن المسؤولية في افشال مفاوضات الحكومة الوطنية، ولا عن المرجعيات في مؤسسات منظمة التحرير او التشريعي او الفصائلي.. وسواها مما يثبت جدارة الافتراق بأكثر مما يثبت وجوب بل ومصيرية الوفاق، بترف شعب غير مأزوم، ولا تنهمر على رأسه المصائب منذ قرن ونيف، وكأن في الزمن فسحة من مراحل، ما زالت تتحمل المزيد من التهارش والمحازبة، ومنطق الحمولات والحارات وقبائل صغيرة اسمها احزاب وفصائل تعرف كيف تختلف لكنها لا تعرف كيف تتفق.

فبالامس القريب، قبيل وفاة الاستاذ هشام شرابي، كتب الرجل مقالة وزعت بآلاف النسخ المصورة، تحت عنوان «تعالوا لنتعلم كيف نختلف» فالمسألة عند استاذنا الكبير، لم تكن في اعطاء درس للوفاق، بأشد ما في اللغة من انشائية وسطوع بلاغة.. ذلك انه يعلم بأن للوفاق شروطه وظروفه ومنهاجيته المقوننة في برامج لا يمكن خذلانها او الخروج عليها مع كل حادثة او حديث، فالوفاق برنامج طويل الأمد، قائم ومكين، وليس عرضة لتقلب الاهواء والامزجة، في ان نقبله ثم نقيله بين ليلة واخرى، اما التوافق في جوهره الاعلى، فانه يتأتى نتيجة تراكمات تقربية نفسية وسياسية ووطنية، وبهذا فانه كمحصلة داخلية، لا يخضع (بل من غير الوطني ان يخضع) لأي انصياع لاملاءات اقليمية او دولية، مهما كانت هذه الاعتبارات، طالما انها تقود الى مشروع فتنة داخلية تحرق نضالات الشعب الفلسطيني، منذ دخول اللنبي مدينة القدس، ومن بعده دايان. وهناك في درس الشرابي، علامة فارقة على طبيعة الاختلاف بين الجماعات او الفصائل والاحزاب.. وهذه العلامة، تكمن في النظرة السلمية لادارة الاختلاف، فاذا ما وقع الاضراب نتيجة للاختلاف، فان الأمة تكون قد غادرت عافيتها العقلانية، جريا وراء الغرائز واضاعة المصير، وليس من الممكن التنبؤ بدرجة سوء المصير الذي ستصل اليه، نظرا لاقالة العقل، بل وسوء العاقبة، التي ادت فيما ادت، الى خروج امم من التاريخ، الى درجة التلاشي، من حيث هو واقع تاريخي، لا تضخيم فيه ولا مغالاة.

قد يكون الاحتلال الصهيوني المديد، واساليبه المستنكرة والمتوحشة.. هي التي ادت الى ما وصل اليه فلسطينيو الداخل اليوم، لكن هذه الحجة على صوابيتها التامة، لم تكن تتماشى مع شعب ذكي، عاصر انعكاسات حربين عالميتين، مع نوعية من احتلال استيطاني مدعوم بكل اسباب القوة العالمية العاتية.. لكنه بعد ثمانين عاما من انهاك مزدوج (بريطاني وصهيوني) تمكن من ابداع انتفاضتيه الاولى والثانية بما اثار اعجاب شعوب العالم أجمع.

اليوم، وبعد استشهاد عرفات، يتراجع الذكاء الفلسطيني الى درجة انحطاطية تسوغ للدخول في غياهب الفتنة، وكأن العقل الفلسطيني قد امتنع عليه توليد مخرج آخر، غير الاحتكام للبندقية المشرعة في وجه فلسطيني قد يكون مرشحا للشهادة او النصر على العدو الصهيوني وليس للشهادة او النصر على اخوة الامة والدين.

إذ ما الذي سيبقى لفلسطين محررة اذا مات شبابها واجيالها في ابادة مزدوجة صهيونية واحترابية داخلية؟ كيف لنا ان نخفي رؤوسنا امام شعوب العالم، وقد سبق لشعبنا ان استأثر باحترام العالم وتقديره، بمن في هذا العالم شعوب القوى الامبريالية ذاتها دون تردد او موارية.

نسأل الله ان يصيب بالصمم، كل قيادة فلسطينية، تعطي اذنيها للخارج دون تبصر، سواء كان هذا الخارج دوليا ام اقليميا.. فنحن نعلم، باعتبارنا من جيل كهول فلسطين، بأن ايماءات الخارج ونصائحه لم تكن كلها في يوم لوجه الله وفلسطين، فالخارج هو الآخر، والآخر كما يقول سارتر هو الجحيم، ولا ينطبق هذا الآخر السارتري قدر انطباقه على كارثتنا الفلسطينية، فاذا كان السيد الرئيس عباس، كما تنثر الدعوة الحماسية على هذا القدر العظيم من الحظوة لدى امريكا واسرائيل، اذن ما الذي يمنع من تحقيق السلام العادل، بما ترتضيه فتح وحماس بآن، دولة فلسطينية في حدود الرابع من حزيران (يونيو) 1967، ما الذي يمنع العلاقة الحميمة من اقامة شرط النجاح لحليف تعتبره حماس في وضع ما فوق الصداقة مع واشنطن وتل ابيب؟ وهل في التاريخ الفلسطيني القريب، بان فشل سياسات الرئيس الشهيد عرفات، ومن بعده الرئيس عباس، انما كان بنسبة كبرى، نتيجة للسياسات العدوانية الاسرائيلية، بأكثر مما هو فشل للبرنامج.

من جهة مقابلة، اذا كانت حماس على هذه الدرجة العظمى من حميمية العلاقة مع ايران، اذن ما الذي منع السيد رئيس مجلس الوزراء الفلسطيني اسماعيل هنية وقد كان في طهران بالامس القريب.. من ان يطالب بحماية شعبه الفلسطيني في العراق، فقد تعالى صراخ المنظمات الدولية الغربية، لدرجات التقتيل والتهجير، في حي الملاعب الفلسطيني في بغداد، حيث يلاقي هذا الحي سوء العذاب على يد ميليشيات عراقية طائفية لا تخفي وجهها الايراني منذ ان تدربت في مدارس السافاك الصفوي، لربع قرن او يزيد.

فاذا كانت ايران حادبة على مد يد العون للقضية الفلسطينية، اذن كيف تكون على هذه الدرجة من الحيادية فيما يتم تقتيل الفلسطينيين في الساحة العراقية او حملهم على الرحيل الى مخيمات رثة، تعيد الذاكرة الى مخيمات العام 1948، حيث لا ماء ولا تصريف ولا سماء إلا من رحم ربك. اليس العراق ساحة من ساحات ايران المثلى اليوم؟ ألم تقترح تقديم المساعدة لانتشال امريكا من ورطتها العراقية، بموجب توصيات لجنة بيكر ـ هامتلون، فكيف لها ان تقدم مثل هذه المساعدة الكبرى، للوضع الامريكي في العراق، فيما تعجز عن تقديم مساعدة صغرى، لانقاذ بضعة آلاف من فلسطينيي العراق، بالصاق تهمة الصدامية بتعميم مطلق، غير ان الحظ المنكوب، لهؤلاء الفلسطينيين، انهم ولدوا على مذهب السنة، ولا نعتقد بأي سبب آخر، لتشريع الابادة بحق هذا الشعب الصغير، ان التوغل في سماع رأي الآخر الخارجي، هو مفتاح الطريق للذهاب الى اقتتال داخلي، وتبدو المعادلة قائمة في المستحيلات المتقابلة، فأمريكا واسرائيل تريدان حلا لا يتحقق فلسطينيا الا باقتتال داخلي، نزع سلاح المقاومة قبل تحرير الارض وتسييد السلطة بجعلها دولة فلسطينية حقيقية.. وغيرها من شعارات منظمة التحرير بشأن القدس وعودة اللاجئين.. على ان التجريد من السلاح يسبق مثل هذه الوعود، ومع ذلك فان هناك عشرات التحفظات الاسرائيلية المسبقة ضد برنامج خريطة الطريق.

بالمقابل، فان حماس تقبل بدولة في حدود (السبع وستين) لكنها لا تقبل بالاعتراف بوجود اسرائيل، ومن الممكن نظريا، ان يكون كل الشعب الفلسطيني والعربي والاسلامي، مع هذا الرفض دون سؤال، لكن الواقع الفلسطيني بعمومه (الداخل والخارج)، اضافة الى الواقع العربي والدولي، لا يشير الى اية امكانية لتحقيق أمنية الرفض بالاعتراف، ولو من باب ما يجمع عليه العالم من باطل الاعتراف باسرائيل، فقد جرت سياسات اعلامية عربية، ظلت تقول لوقت طويل، ما (يسمى بالكيان الصهيوني)، وكان لزاما علينا، بعد ان اصبحنا من مربي الاجيال الفلسطينية الصاعدة، ان ننبه الى لزوم شطب (كلمة اسرائيل) حيثما كانت، وقد تبين بعد عقود، ان سياسات النعامة هذه، مع تسخين البلاغة الخطابية، لا تجير مظلوما ولا تسترد حقا ضاع.

ومن هنا الى مستقبل مجهول، فان شعب فلسطين، قد يضطر للاعتراف باسرائيل واقعيا، وليس حقا تاريخيا على الاطلاق، وهذا ليس من قبيل السفسطة الكلامية (فن ابداع الكلام)، بل تترتب عليه نتائج تتماثل مع القول العربي المأثور (لا يضيع حق وراءه مطالب)، وبمعنى العلم السياسي المعاصر، فان الحرب هي السياسة بمعنى آخر، فاذا كان ثمة حرب، فمن المفترض ان تكون لها أطراف، والحروب الانسانية تاريخيا، كانت تنتهي الى صيغ مختلفة، اما غالب ومغلوب بصيغتها الشهيرة (دون قيد او شرط)، او تنتهي الى التسوية عبر المفاوضات حسب واقع الحال، والمفاوضات بدورها لا تصل الى وسطية التسوية المرحلية، الا بقوة محاربة خلفها، سواء كانت قتالية او لوجستية او تعبوية، ويضيف كلاوزفتز، المنظر الاستراتيجي الشهير، بان القوة الاساس، خلف المقاومة هي الحاضنة الشعبية الداخلية، او كما يسميها ماو تسي تونغ (بحر السمك بلا حدود)، وقد يتماثل هذا التشبيه مع الواقع الموضوعي لجميع الشعوب، الا شعب فلسطين الموزع الاوصال.

اما الحقيقة الثانية في قوة الاستراتيجية، فتكمن في التواصل الجواري الايجابي مع المقاومة، ونموذجها الأعم في فيتنام والجزائر وكوريا الشمالية اليوم.. وما من ريب ان الرأي العام العالمي وما يشكله من حالة دفاع رمزية عن حق الشعوب في التحرر، يظل في محل اعتبار ولا يجوز الاستخفاف بوزن الشعوب التي ظلت مؤيدة للحق الفلسطيني، الى درجة ان الرمزية الفلسطينية في الكوفية، صارت تلبس من النرويج الى بريطانيا.

ان الواقع الفلسطيني كما آل اليه تاريخنا العربي، لا يتماثل مع اي واقع آخر في تاريخ الشعوب، ومن هنا، فان الشعب الفلسطيني (خصوصا شعب الداخل) يجب ان يجترح حلا تعاقديا مهما تنابذت البرامج والمشارب، وهي دعوة ليست رومانسية بحال، قدر ما هي مصيرية، ذلك ان الثنائية التي باتت تحكم مصير فلسطين، قائمة الآن، اما في الوفاق او الافتراق، والافتراق هنا ليس بمعناه السلمي (لكم دينكم ولي دين) بل بمعناه الدموي، الذي تطرب له اسرائيل، وترقص له ادارة بوش، ولما كان الوفاق هو الحل الثاني الذي لا ثالث معه، فان الجهد المنصب على بلوغه، مهما كانت المشاق والتضحيات بل والتنازلات حتى الى حد طلب العزلة.. لافضل من المشاركة في بغي الفتنة القاتلة للجميع، فقد روي عن نبي هذه الامة محمد (ص) انه قال «اذا تلاقى مسلحان بسيفيهما، فان القاتل والقتيل كليهما في النار»، فهل ناديت اذ ناديت حيا، في فلسطين والعراق ولبنان.. فلطالما يظهر القوم، كامل الصدوع لما يقوله الرسول الكريم، ام هو الظاهر والباطن، فيما تدغدغ النفوس رجعة الى جاهلية سوداء؟!

* كاتب من فلسطين يقيم في سورية